مناقب الشافعي

لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي

٣٨٤ - ٤٥٨

تحقيق

السيد أحمد صقر

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

مكتبة دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

دار النصر للطباعة
١٣ شارع سعدالله الدرب الأحمر القاهرة
ت ٩٣٦١٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

ملك يوم الدين

إياك نعبد وإياك نستعين

اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم ولا الضالين

بسم الله الرحمن الرحيم

شغف البيهقى بسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنفق حياته فى تحصيلها ودرسها وإيصالها نقية بيضاء إلى أبناء الإسلام الذين افترض عليهم ربهم أن يأخذوا ما آتاهم الرسول ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه ، والذين أمرهم رسولهم الكريم أن يبلغوا عنه مقالته إلى من بعدهم لتكون كلمة الله وكلمة رسوله باقية على وجه الزمان؛ تنير للمسلمين سبيلهم ، وتدير على الحق أعمالهم وأقوالهم ، وتجمع قلوبهم على عبادة من خلقهم ورضى لهم الاسلام دين عزة وسعادة فى الدنيا والآخرة .

* * *

وقد دفعه هذا الشغف العظيم إلى العناية بآثار الشافعى : ناصر السنة ، ومؤسس فقهها ، وفاتح أقفالها ، والذى شهد له أعلام العلماء بأنهم ماعرفوا فقه السنّة إلا بعد أن استخرج مكنونها ، واستنبط فنونها ، وجلّى دقائقها ببيانه المشرق المتين ، وأسلوبه الجزل الرصين .

وما كانت عناية البيهقى بآثار الشافعى وليدة الخطرة العابرة ، والفكرة السائرة ، والنظرة الطائرة ، بل كانت وليدة التأمل الوثيق ، والتفكر العميق ، والاعتبار الدقيق ، والمقايسة بين ما كتبه أعلام الأئمة الذين قاموا بعلم الشريعة ، وبنوا مذاهبهم على مبلغ علمهم من كتاب الله ، وسنة رسول الله .

وقد انتهت تلك المقايسة بالبيهقى إلى عرفانه أن الشافعى أكثر الأئمة اتباعا ، وأقواهم احتجاجا ، وأصحهم قياسا ، وأبينهم بيانا ، وأفصحهم لسانا ،

وأوضحهم إرشادا فيما صنف من كتب فى الأصول والفروع جميعا .

ولما فرغ البيهقى من تصنيف مصنفاته فى السنة ألّف كتابا عن منشئ السنة وهو كتاب « دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم » .

ولما انتهى من ترتيب كتب الشافعى وتصنيفها وتخريج أحاديثها رأى كذلك أن يخص الشافعى بكتاب ، وقوّى من عزمه أن بعض أصحابه اقترح عليه تأليف هذا الكتاب ، وفى ذلك يقول : « وقد سألنى بعض أصحابنا من أهل العلم والبصيرة أن أجمع كتابا مشتملا على ذكر مولد الشافعى ونسبه ، وتعلمه ، وتعليمه ، وتصرفه فى العلم ، وتصانيفه ، واعتراف علماء دهره بفضله ، ومايستدل به على كمال عقله ، وزهده فى الدنيا ، وورعه ، واشتهاره بخصال الخير ومكارم الأخلاق ـ فى وقته وبعد وفاته ـ فأجبته إلى مسألته ؛ اقتصاراً منى فى ذكر معرفته بالفقه ، وحسن مناظرته على تسمية تصانيفه ، وطرف من حكاياته دون ذكر كيفية تصرفه ؛ فإن العلم به إنما يقع بالنظر فى كتبه المصنفة فى أصول الفقه ثم فى « المبسوط » المردود إلى ترتيب المختصر ، ثم فى « السنن » حتى خرجتها على مسائل « المبسوط » فى مائتى جزء وأكثر ، ثم بالنظر فى كتاب « معرفة السنن والآثار » والذى أوردت فيه كلام الشافعى على الأخبار ، بالجرح والتعديل ، والتصحيح والتعليل فى سبعين جزءا ، ثم فى كتاب « المدخل » المخرج على أصوله .

فيستدل بذلك على صحة أصول الشافعى ، وحسن بنائه الفروع عليها ، موافقا لشريعة المصطفى فى اتباع الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وآثار

الصحابة ، والقياس على ماثبت بأحد هذه الأصول .

وقد اعترف البيهقى بأنه قد سبق إلى التأليف فى هذا الموضوع حيث يقول:

« وقد صنف جماعة من أهل العلم فى فضل الشافعى ، ومناقبه كتبا مشتمله على ذكر مانقل إليهم من أحواله الجميلة ، وأقواله الحسنة ، وأفعاله المحمودة ، وماخص به من الجمع بين علم الأصول والفروع فى أحكام الشريعة ، ومشاركة غيره فى سائر أنواع العلوم » .

ولم يكن البيهقى فى حديثه هذا بسبيل ذكرها وذكر أصحابها ، ولكنه كان يريد الاستشهاد بما ذكره على صحة جواز أن يكون الشافعى هو المراد بحديث عالم قريش ؛ لأن الشافعى كما قال : « قد صنَّف الكتب ، وفتق العلم ، وشرح الأصول والفروع ، وعلا فى الذكر بما ألف وشرح ، وفتح الله على لسانه العلم الكثير ، ومر فى آذان السامعين ، ووعته القلوب ، فازداد على مر الأيام حسنا وبيانا » .

ولكن البيهقى قد ذكر فى ثنايا الكتاب : الكتب المصنفة فى فضائل الشافعى التى روى عنها أو قرأها ، وهى :

(١) كتاب أبى سليمان: داود بن على الأصفهانى، إمام أهل الظاهر (٢٠١-٢٧٠)

(٢) « أبى عبدالله : محمد بن إبراهيم البوشنجى ، المالكى (٢٠٤ - ٢٩٠)

(٣) « أبى يحيى : زكريا بن يحيى الساجى المتوفى سنة ٣٠٧

(٤) « أبى محمد : عبد الرحمن بن أبى حاتم (٢٤٠ - ٣٢٧)

(٥) كتاب أبى الحسن : محمد بن الحسين الآبرى العاصمى المتوفى سنة ٣٦٣

قال السبكى عنه : وهو كتاب حافل رتبه على أربعة وسبعين بابا

(٦) كتاب الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٠)

(٧) « أبى منصور : محمد بن عبد الله بن حمشاذ (٣١٦ - ٣٨٨)

(٨) « أبى بكر : محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيبانى المتوفى سنة ٣٨٨

(٩) « الحاكم النيسابورى أبى عبد الله محمد بن عبد الله ، المعروف بابن البيّع ، قال عنه ابن السبكى : وهو مصنف جامع (٣٢١ - ٤٠٥)

(١٠) كتاب أبى القاسم : حمزة بن يوسف السهمى المتوفى سنة ٤٢٧)

(١١) « أبى نعيم : أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠

وقد ألّف فى مناقب الشافعى قبل البيهقى أو فى عصره كثير من العلماء - عدا هؤلاء ، لكن لم يشر إليهم البيهقى فى هذا الكتاب ومنهم :

(١) أبو حاتم : محمد بن حبان البستى صاحب الصحيح (المتوفى سنة ٣٥٤)

(٢) أبو على : الحسن بن الحسين بن حكان الأصبهانى (المتوفى سنة ٤٥٠)

(٣) أبو عبد الله : محمد بن أحمد شاكر القطان (المتوفى سنة ٤٠٧)

(٤) إسماعيل بن محمد السرخسى القراب (المتوفى سنة ٤١٤)

(٥) أبو منصور : عبد القاهر بن طاهر البغدادى (المتوفى سنة ٤٢٨)

(٦) أبو عبد الله : محمد بن سلامة المصرى (المتوفى سنة ٤٥٤)

وقد ألف أبو الحسين : محمد بن عبد الله الرازى (المتوفى سنة ٣٤٧) والد تمام الرازى (٣٣٠ — ٤١٤) كتابا مستقلا فيمن روى عن الشافعى ،

ولـكن البيهقى لم ينقل عنه ، وإنما نقل عن كـتاب « أسامى من روى عن الشافعى » للدارقطنى .

* * *

بدأ البيهقى كـتابه ببيان فضل أهل الحديث ، وأنهم الطائفة القائمة على إحقاق الحق حتى تقوم الساعة ، كما وعد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ثم تحدث عن فضل قريش وما جاء فى تخصيصها بالتقديم والاتباع ، وأن الشافعى هو المشار إليه بحديث النبى ، صلى الله عليه وسلم : أن عالم قريش يملأ طبق الأرض علما .

ثم تحدث عما جاء فى تخصيص بنى هاشم بالاصطفاء وبنى المطلب الذين ينتمى إليهم الشافعى ، وتفضيل أهل اليمن بالإيمان ، والفقه ، والحـكمة .

ثم فصل القول فى حديث : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » وتأويل بعض العلماء لهذا الحديث بأن الذى جاء على رأس المائة الثانية هو الشافعى .

ثم نقد البيهقى العلماء الذين ظفروا بالوجاهة والعز والثروة عند الرؤساء ، ونالوا من الشافعى ، ورموه بأنه كان قليل العلم بالـكتاب ، وأنه لم يكن من أهل الاجتهاد ، وأعقبه بالحديث عمن آذى قرابة الرسول أو أراد هوانهم ، ثم بين سبب تأليفه للـكتاب .

وتحدث بعد ذلك عن مولد الشافعى ، ومكان ولادته ونسبه ، وأفاض القول فى ذلك إفاضة شافية مقنعة .

ثم تحدث عن تعليم الشافعى ، وما روى فى اشتغاله بتعلم الأدب والشعر وعن رحلته وهو ابن ثلاث عشرة سنة إلى مالك بن أنس بالمدينة .

ثم بين خروج الشافعى إلى اليمن وولايته بعض أعمالها ، ومقامه فيها حتى

اتهم بالاشتراك فى مؤامرة بعض العلويين بها ، وحمله إلى الرشيد وحبسه ببغداد ، وما كان بينهما من محاورات ومراجعات انتهت بعفو الرشيد عنه ، وإكرامه له .

ثم أسهب فى بيان المناظرات الرائعة ، والمحاورات العلمية الشائقة ، التى جرت بين الشافعى وبين محمد بن الحسن الحنفى فى مجلس الرشيد ، وفى غيره من المجالس بمدينة بغـــداد ومدينة الرقة ، وأن الرشيد كُتِبَ له بخبر تلك المناظرات التى ظهر فيها الشافعى على محمد ، وقطع حجته ، وطبع على فمـه بخاتم الصمت ، فأعجب الرشيد بموقف الشافعى الهاشمى ، وقال : « وما يُنكَر لرجل من عبد مناف أن يقطع محمد بن الحسن ؟ » وأمر له بجائزة ، ورغب إليه فى أن يلازمه ، كما رغب إليه المأمون فى ذلك .

ثم بين مكانة الشافعى عند الرشيد والمأمون ، وعودة الصفاء والإخاء بين الشافعى ومحمد بن الحسن ، وكتابة الشافعى الكتب محمد ، وتأليف الكتاب البغدادى للرد على الأحناف ، ورأى الشافعى وغيره فى أبى حنيفة وأصحابه .

ثم تحدث عن صحة نية الشافعى ، وقصده الجميل فى تأليفه لكتبه ، وحسن مناظرته لمن خالفه ، وغلبته كُلَّ من ناظرة بالعلم والبيان ، وذكر نماذج رائعة من تلك المناظرات .

وخلص من هذا إلى الحديث عن دخول الشافعى العراق أيام المأمون للتدريس والتعليم . ثم تحدث عن سبب تصنيف الشافعى لكتاب « الرسالة القـــديمة » ثم فى ذهاب الشافعى إلى مصر ، وتصنيفه بها الكتب المصرية الجديدة . وذكر البيهقى فى صدر هذا أن الربيع بن سليمان لقيه بمدينة « نصيبين » قبل أن

يدخل مصر ، وقال عنه : كان الشافعى يعمل الباب من العلم ثم يقول : ياجارية قومى إلى القَدّاح فتقوم ؛ فتسرج له ، فيكتب ما يحتاج أن يكتبه ويرسمه فى موضعه ، ثم يطفىء السراج ويستقى على ظهره فيعمل الباب من العلم .

. . . وهكذا ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، لو تركت السراج يَقِدُ ؛ فإن هذه الجارية منك فى جهد ؟ فقال : إن السراج يشغل قلبى .

وقال لى يوما : كيف تركت أهل مصر ؟

فقلت: تركتهم على ضربين : فرقة منهم قد مالت إلى قول مالك ، وأخذت به ، واعتمدت عليه ، وذبت عنه وناضلت . وفرقة قد مالت إلى قول أبى حنيفة ، فأخذت به ، وناضلت عنه .

فقال الشافعى : أرجو أن أقدم مصر — إن شاء الله — وآتيهم بشىء وأشغلهم به عن القولين جميعا .

قال الربيع : ففعل ذلك — والله — حين دخل مصر .

ثم روى البيهقى عن بحر بن نصر الخولانى أنه قال :

قدم الشافعى من الحجاز ، فبقى بمصر أربع سنين ، ووضع هذه الكتب فى أربع سنين . . وكان يضع الكتب بين يديه ويصنّف ، فإذا ارتفع له كتاب جاء صديق له يقال له : « ابن هرم » فيكتب ، ويقرأ عليه « البويطى » وجميع من يحضر يسمع فى « كتاب ابن هرم » ثم ينسخونه بعد . وكان « الربيع » على حوائج الناس فربما غاب فى حاجة ، فيعلّم له ؛ فإذا رجع قرأ الربيع عليه ما فاته .

ثم عقد بابا عظيما ذكر فيه عدد ما وصل إليه من مصنفات الشافعى ؛ فذكر من الكتب التى تجمع الأصول وتدل على الفروع ثلاثة عشر كتابا ، ثم قال :

« ومن الكتب التى هى مصنفة فى الفروع وهى التى تعرف « بالأم » فى الطهارات : كتاب الوضوء والتيمم . . إلخ وفى الصلوات والزكوات والصيام ، والحج ، والمعاملات ، والإجارات ، والعطايا ، والوصايا ، والفرائض وغيرها ، والأنكحة ، والجراح ، والحدود ، والسير والجهاد ، والأطعمة والقضايا والعتق وغيره .

وذكر تحت كل عنوان من هذه العناوين الكتب التى ألفها الشافعى فيها ، ثم قال : « فذلك مائة ونيف وأربعون كتابا » .

وهذا الباب من أهم أبواب الكتاب ؛ لأنه بين فيه الكتب الأخرى ـ عدا ماسبق ـ والتى أملاها على أصحابه ورواها عنه الربيع بن سليمان المرادى ، وبين الكتب التى لم يسمعها الربيع من الشافعى ، والتى يقول فيها : « قال الشافعى رحمه الله . كما بين فيه كتب الشافعى التى ألفها فى القديم ، ورواها عنه الحسن بن محمد الزعفرانى ، والكتب التى أعاد تصنيفها فى الجديد ، والكتب التى أمر بتمزيقها ، لتغير اجتهاده فيها ، والكتب الأخرى التى رواها عنه الحسين الكرابيسى ، وأحمد بن يحيى الشافعى البغدادى : أبو ثور ، وأحمد ابن حنبل ، والحميدى ، ويونس بن عبد الأعلى ، ومحمد بن عبد الله بن عبدالحكم وابن مقلاص ، والربيع بن سليمان الجيزى — وهو غير المرادى — والحارث ابن سريج النقّال ، والحسين الفلاس ، وبحر بن نصر ، وغيرهم .

ومن أجمل مافى هذا الباب قول الشافعى :

« ألّفت هذه الكتب واستفرغت فيها مجهودى ، ووددت أن يتعلّمها الناس ولا تُنْسَبَ إلىّ » .

ثم عقد بابا ذكر فيه مايستدل به على رغبة العلماء فى عصر الشافعى ومن بعد عصره فى كتبه ، والاقتباس من علمه ، والانتفاع به ، وحسن الثناء عليه . وصدره بقوله : « وذلك لانفراده من فقهاء الأمصار بحسن التأليف ؛ فإن حسن التصنيف يكون بثلاثة أشياء :

أحدها : حسن النظم والترتيب .

والثانى : ذكر الحجج فى المسائل مع مراعاة الأصول .

والثالث : تحرى الإيجاز والاختصار فيما يؤلفه .

وكان قد خص بجميع ذلك ، رحمة الله عليه ورضوانه »

وذكر فى هذا الباب قول الجاحظ : « نظرت فى كتب هؤلاء النَّبَغَة الذين نبغوا ، فلم أر أحسن تأليفا من المُطّلبى ، كأن فاه نظم دُرًّا إلى درّ » .

ثم ذكر مايستدل به على حفظ الشافعى لكتاب الله ، ومعرفته بالقراءات ، وحسن صوته بالقراءة . وجعل الباب الذى يليه فيما يستدل به على معرفة الشافعى بتفسير القرآن ، ومعانيه ، وسبب نزوله .

ثم أتبعه بباب مايستدل به على معرفة الشافعى بمعانى أخبار رسول الله . وقد بدأه بقول أحمد بن حنبل : ما كان أصحاب الحديث يعرفون معانى حديث رسول الله حتى قدم الشافعى فبينها لهم .

وهو باب عظيم أتى فيه البيهقى بمُثُلٍ رائعة تدل على أن الشافعى كان — كما قال يونس بن عبد الأعلى — نسيج وحده فى هذه المعانى .

ثم أعقب ذلك بباب مايستدل به على فقه الشافعى ، وتقدمه فيه ، وحسن

استنباطه . وقد أورد البيهقى فى هذا الباب حديث النعمان بن بشير : أنه أتى رسول الله وقال له : إنى نحلت ابنى هذا غلاما كان لى ، فقال صلى الله عليه وسلم: أكلَّ ولدك نحلت مثل هذا؟ فقال : لا ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : فارجعه » .

وقول الشافعى فيه : « حديث النعمان حديث ثابت ، وبه نأخذ ، وفيه دلالة على أمور .

ومن هذه الدلالات التى ذكرها الشافعى قوله : « وفيه دلالة على أن نُحْل الوالد بعض ولده دون بعض جائز ، من قِبَل أنه لو كان لا يجوز كان أن يقال : إعطاؤك إياه وتركه سواء ؛ لأنه غير جائز ، وهو على أصل ملكك الأول — أشبه من أن يقال : ارجعه . وقوله صلى الله عليه وسلم : « فارجعه » دليل على أن للوالد رَدّ ما أعطى الولد ، وأنه لا يَحْرُجُ بارتجاعه . وقد رُوِى أن النبى قال : « أشْهِد غيرى » وهذا يدل على أنه اختيار » .

وقد خالفت قول الشافعى هذا وعلقت عليه بقولى ١/٣٤٧ كيف يكون هذا على الاختيار وقد عدّه صلى الله عليه وسلم جوراً؟ الخ

ثم ذكر البيهقى بابا يستدل به على معرفة الشافعى لأصول الفقه ، وهو باب عظيم ، لأن الشافعى أول من صنّف فى أصول الفقه .

ويعجبنى من نصوصه قول الشافعى :

« وضع الله نبيه من دينه وأهل دينه موضع الإبانة عن كتاب الله — معنى ما أراد ، وفرض طاعته . . . فَعِلْمُ الحق كتابُ الله ، ثم سنّة نبيه ؛

فليس لمفتٍ ولا لحاكم أن يفتى ولا يحكم حتى يكون عالما بهما ، ولا أن يخالفهما ولا واحـداً منهما بحال ، فإذا خالفهما فهو عاص لله به ، وحكمه مردود » .

ثم ذكر باب مايستدل به على معرفة الشافعى لأصول الكلام وصحة اعتقاده فيها . فذكر مايؤثر عنه فى الإيمان ، وفى دلائل التوحيد ، وفى أسماء الله ، وصفات ذاته ، وأن القرآن كلام الله ، وكلامه من صفات ذاته ، وإثبات المشيئة لله ، وإثبات القـدر ، وخلق الأفعال ، وعذاب القبر ، وإثبات رؤية الله فى الدار الآخرة .

ثم مايؤثر عن الشافعى فى تفضيل النبى على جميع الخلق ، وإثبات الشفاعة له صلى الله عليه وسلم .

وما يؤثر عنه فى الذنوب التى هى دون الكفر ، ومايلحق الميت من فعل غيره .

وما يؤثر عنه فى الخلفاء الأربعة ، وفى جملة الصحابة ، وفى قتال أمير المؤمنين على بن أبى طالب أهل القبلة .

ثم ماجاء عن الشافعى فى مجانبة أهل الأهواء و بغضه إياهم ، وذم كلامهم ، وإزرائه بهم ودَقِّه عليهم فى مناظرته إياهم .

وهو فصل بالغ الأهمية .

ثم عقد البيهقى بابا فى الاستدلال على حسن اعتقاد الشافعى فى متابعة السنة ، ومجانبة البدعة .

ومما رواه البيهقى فيه من كلام الشافعى :

«مامن أحد إلا ويذهب عليه سنة لرسول الله ، وتعزُبُ عنه ، فمهما قلتُ من قول ، أو أصَّلتُ من أصل ـ فيه عن رسول الله خلاف ماقلتُ ـ فالقول ماقال رسول الله ! وهو قولى ! » .

ثم عقد بابا عنوانه : مايستدل به على معرفة الشافعى برجال الحديث .

ذكر فيه مايستدل به على معرفة الشافعى بأسامى الرواة ، وأنسابهم ، وتواريخهم ، وجرحهم وتعديلهم .

وهو باب جم المنافع ، عظيم الفائدة ؛ دل على سعة أفق الشافعى فى هذا المضمار ، ومدى تمكُّنه منه ، واقتداره عليه .

ومن الفوائد التى تُجتنى من هذا الباب : أن الشافعى وضع كتابه على مالك ابن أنس ؛ لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها ! وأنه كان يقال للأندلسيين : قال رسول الله . فيقولون : قال مالك !

ومن أجل ذلك قال الشافعى : إن مالكا آدمى يخطئ ويغلط .

وبلى ذلك بابٌ جليل القدر ، عظيم الخطر ، وهو باب مايستدل به على معرفة الشافعى بصحة الحديث وعلته .

وباب آخر فيما يستدل به على إتقان الشافعى فى الرواية ، ومذهبه فى قبول الأخبار ، واحتياطه فيها .

ثم عقد بابا فيما يستدل به على فصاحة الشافعى ، ومعرفته باللغة والشعر الذى هو ديوان العرب . أورد فيه قول أحمد بن حنبل :

« الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة ، واختلاف الناس ، والمعانى ، والفقه » .

وقول الربيع : أقام الشافعى على قراءة العربية وأيام الناس عشرين سنة ، وقال : ماأردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه .

وقول أبى عثمان المازنى : « الشافعى عندنا حجة فى النحو » .

وقول الأصمعى : « صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة يقال له : محمد بن إدريس الشافعى » .

وقول الربيع : « كان الشافعى عربى النفس ، عربى اللسان ، ولو رأيته وحسن بيانه وفصاحته لتعجبت منه ، ولو أنه ألف هذه الكتب — على عربيته التى كان يتكلم بها — لم يُقدر على قراءة كتبه » .

ثم ذكر بابا للشعر الذى أثر عن الشافعى أنه أنشده لنفسه أو لغيره .

وأعقبه بباب مايستدل به على معرفة الشافعى بالطب ، أورد فيه قول حرملة ابن يحيى : كان الشافعى يتلهف على ماضيع المسلمون من الطب ، ويقول : ضيعوا ثلث العلم ، ووكلوه إلى اليهود والنصارى ! ! !

وتلاه باب مايستدل به على معرفة الشافعى بالنجوم ، وما يؤثر عنه فى الفراسة ، وإصابته فيها . ثم معرفته بالرمى والفروسية وذكر فيه قول الربيع : كان الشافعى أفرس خلق الله وأشجعه ، وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس ، والفرس يعدو ، فيثب على ظهره وهو يعدو .

* * *

ثم ذكر باب ما يؤثر عنه فى فضل العلم والترغيب فى تعلمه وتعليمه والعمل به . ومن ألطف ماجاء فى هذا الباب قول الشافعى :

لو أن أهل كورَةٍ اجتمعوا على ترك طلب العلم ، لرأيت للحاكم أن يجبرهم على طلب العلم .

وقوله : ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضل من طلب العلم .

وقوله : من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم .

وقوله : من تعلم علما فليدقِّق ؛ لئلا يضيع دقيق العلم .

وقد روى المزنى أنه قيل للشافعى : كيف شهوتك للأدب ؟

قال : أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه فتود أعضائى أن لها أسماعاً تتنعم به مثلما تنعمت الأذنان !

قيل : وكيف حرصك عليه ؟

قال : حرص الجموع المنوع على بلوغ لذته فى المال .

وقيل : وكيف طلبك له ؟

قال : طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره .

وقوله : مثل الذى يطلب العلم بلا حجة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدرى .

وقوله : المراء فى العلم يقسى القلب ، ويورث الضغائن .

وقوله : من إذَالَةِ العلم أن تناظر كل من ناظرك ، وتقاوِلَ كلَّ من قاوَلَك .

وقوله : كفى بالعلم فضيلة : أنه يدعيه من ليس فيه ويفرح إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل شرا أنه يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه .

وقال الشافعى لأبى على بن مقلاص : تريد أن تحفظ الحديث وتكون فقيها ؟ !

وإنما قال الشافعى ذلك لأن ابن مقلاص كان كسائر الحفاظ الذين يشغلون أنفسهم بحفظ أبواب الحديث وسردها سرداً ، ولا يعملون عقولهم فى استنباط مافيها . ولقد قال الشافعى لإسحاق بن إبراهيم الحنظلى أثناء مذاكرة جرت بينهما : لو كنت أحفظ كما تحفظ لغلبت أهل الدنيا . وقال أحمد بن حنبل : قال لنا الشافعى رحمه الله : أنتم أعلم بالحديث منى ، فإذا صح عندكم الحديث عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فقولوا لنا حتى نأخذ به . وقال الشافعى : مارأيت أحفظ من الحميدى ، كان يحفظ لسفيان بن عيينة عشرة آلاف حديث . وقال الحميدى : صحبت الشافعى من مكة إلى مصر فكنت أستفيد منه « المسائل » وكان يستفيد منى « الحديث » .

ثم ذكر البيهقى مايستدل به على اجتهاد الشافعى فى طاعة ربه ، وزهده فى الدنيا ، وحضه الناس على هذا الزهد .

ومما جاء فى ذلك قول الربيع : خرجت مع الشافعى من « الفسطاط » إلى « الإسكندرية » مرابطا ، وكان يصلى الصلوات الخمس فى المسجد الجامع ، ثم يسير إلى المحرس فيستقبل البحر بوجهه جالساً يقرأ القرآن فى الليل والنهار ، حتى أحصيت عليه ستين ختمة فى شهر رمضان .

وحكى الربيع أن عبد الله بن عبد الحكم قال للشافعى : إن عزمت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزّز به . فقال له

الشافعى : يا أبا محمد ،من لم تعزّه التقوى فلا عزّ له ، ولقد ولدت بغزة ،ورُبِّيتُ بالحجاز ، وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعاً .

وقال له المزنى : مالك بد من إمساك العصا ولست بضعيف ؟! فقال : لأذكر أنى مسافر فى الدنيا .

وقال الشافعى : خير الدنيا والآخرة فى خمس خصال : غنى النفس ، وكف الأذى ، وكسب الحلال ، ولباس التقوى ، والثقة بالله على كل حال .

وقال للربيع : عليك بالزهد ،فلَلزُّهد على الزاهد أحسن من الحلى على المرأة الناهد ! .

وذكر عند الشافعى فهم القلب فقال : من أحبّ أن يفتح الله له قلبه أو ينوِّره ، فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه ، وترك الذنوب ، واجتناب المعاصى ، ويكون له فيما بينه وبين الله خَبِيَّةٌ من عمل ؛ فإنه إذا فعل ذلك فتح الله عليه من العلم ما يشغله عن غيره ، وإن فى الموت وذكره لأكثر الشغل .

وفى هذا المعنى يقول أيضا : من أحبّ أن يفتح الله قلبه ويرزقه الحكمة — فعليه بالخلوة ، وقلة الأكل ، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب .

وقال الشافعى للربيع : لا تتكلم فيما لا يعنيك ؛ فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها .

وقال ليونس بن عبد الأعلى : لو جهدت كل الجهد على أن ترضى الناس كلّهم فلا سبيل إليه ، فإذا كان كذلك فأخلص عملك ونيتك لله عز وجل .

* * *

ثم ذكر البيهقى باب ما يستدل به على تمكن الشافعى من عقله ، وما يؤثر عنه من الآداب .

ذكر فيه من قول الشافعى هذه الكلمات :